﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة: 142]

۞ مُناسبة الآية لِما قبلها

الحديثُ عن إبراهيمَ وما جرَى مع اليهودِ والنّصارى تمهيدٌ لتحويل القِبلة

"مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالُوا: إِنَّ إِبرَاهِيمَ، وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ، كَانُوا يَهُودًا وَنَصَارَى، ذَكَرُوا ذَلِكَ طَعنًا فِي الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ عِنْدَ اليَهُودِ بَاطِلٌ، فَقَالُوا: الانتِقَالُ عَنْ قِبْلَتِنَا بَاطِلٌ وَسَفَهٌ، فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ الآيَةَ، فَبَيَّنَ مَا كَانَ هِدَايَةً، وَمَا كَانَ سَفَهًا"[1].

ولـمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى إبراهيمَ -عليه السلام- وملّتَهُ في الآياتِ السّابقةِ، وقد بَيَّنتْ تلك الآياتُ سفاهةَ مَنْ يرغَبُ عن مِلّة إبراهيمَ، وتحدّثتْ عن الكعبةِ وبنائها، كانت تلك الآياتُ تمهيدًا لتحويل القِبلة، وكان مِنَ الجَلِيّ أنّ أعداء الإسلام سيستَقبِلُون ذلك التّحَوُّلَ بالاستهزاءِ والطّعن؛ فكانت هذه الآيةُ بين الآياتِ السّابقةِ وآية تحويلِ القِبلةِ: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾ [البقرة: 144].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

السّفهاءُ خَفيفُو العُقول فارِغوها، البَعيدون عن التّروِّي

1) ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: أَصْلُ السَّفَهِ: الاضْطِرابُ والمُنَازَعَةُ[2]، وهو: نقيضُ الحِلْم[3]، والسّفهاء في سياق الآية: خفيفو العقول فارغوها، البعيدون عن التّروِّي ومعرفة مقاصد الأمور وأسرارها، مع النّزوع

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9.
(2) ابن عباد، المحيط: (سفه).
(3) الخليل، العين: (سفه).

إلى الجدال والمُنازعة، والمرادُ: كلُّ أعداء النّبي ﷺ والإسلام، من يهود ومنافقين ومشركين؛ "فكلٌّ قد عابوا، وكلٌّ سفهاء"[1].

ومعنى السُّفَهاءِ في الآية: "جَمْعُ سَفيهٍ، وهو الكَذّابُ البَهّاتُ المُعْتَمِدُ خِلافَ ما يُعْلَمُ"[2]، "الخفيف إلى ما لا يجوز له أن يخفّ إليه"[3]، وهو "كلُّ معتقدٍ باطلاً يُسرع إلى إظهارِ معتَقَدِه، ولا يكون له ثبات"[4].

التّولّي عن الشّيء الانصِرافُ عنه والإعراضُ وتركُ الاقترابِ منه

2) ﴿وَلَّىٰهُمۡ﴾: أصل الجذر (وَلِيَ) يدُلُّ على اتّجاه إلى شيءٍ أو وِجْهةٍ: ولَّى وجهَه شطْرَ كذا: وَجَّهَهُ إليه، وولّى وجهه إلى جهة: أقبلَ عليها واتّجه نحوها، وتولّى عن الشّيء: انصرَفَ وأعرضَ عنه، ووَلَّيْتُ سَمعي كذا، ووَلَّيْتُ وَجهي كذا: أقبلتُ به عليه، قال الله ﷻ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 144][5].

ولفظ ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾ في سياقِ الآيةِ معناه: "ما عَدَلهم وصَرَفهم؟!"[6].

سُمِّيَتْ قِبْلَةً لإقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا فِي صَلَاتِهِمْ

3) ﴿قِبۡلَتِهِمُ﴾: أَصْل (القِبلَة) يَدُلُّ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ، ومُقدَّم الشّيء الّذي يُتَّجَه إليه لمُلاقاته، وَالقِبلَةُ سُمِّيَتْ قِبلَةً لِإقبَالِ النَّاسِ عَلَيهَا في صَلَاتِهم، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أَيضًا[7].

4) ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: أَصْلُ مادّة (شَرَقَ) يَدُلُّ عَلَى إِضَاءَةٍ وَفَتْح، مِنْ ذَلِكَ شَرَقَتِ الشَّمْسُ[8]، و(المَشْرِق) المكانُ الّذي تُشرِقُ منه الشّمسُ في نظرِ العَين، ويُستَعْمَلُ للجِهةِ الّتي تَكْنُف ذلك المكانَ مهما امتدّت في جانِبَيه[9].

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: (سفه).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/174.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/367.
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/327.
(5) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 3/368.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرق).

5) ﴿ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾: أصل مادّة (غَرَبَ) يدلّ على الانصبابِ والانحدارِ، كما تَنْصَبُّ الدَّلْوُ الموصوفة في بئرِ السّانيةِ بقُوّة لعِظَمها، أو كما ينصبُّ الماءُ فيها بقوّة لعِظمه أيضًا، ومنه "غروب الشّمسِ" بانصبابها من الأفقِ وغيابِها في أدناه، والمغربُ: جهة الغروب[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

إخبارٌ عن حدثٍ مستقبليّ، وتعليمٌ للرّسولِ الرّدَّ عليه

يُخبِرُ اللّه تعالى أنّه "سيقولُ الجهالُ وضِعافُ العقولِ من اليَهودِ وأمثالهم، في سخريةٍ واعتراضٍ: ما الذي صرفَ هؤلاءِ المسلِمين عن قبلتِهم التي كانوا يُصَلُّون إلى جهتِها أوَّلَ الإسلام؟ وهي بيتُ المَقدِسِ، قل لهم أيّها الرّسولُ: المشرقُ والمغربُ وما بينهما ملكٌ للّهِ، فليست جهةٌ من الجهاتِ خارجةً عن ملكِهِ، يهدي مَن يشاءُ من عبادِه إلى طريقِ الهدايةِ القَويمِ.

وفي هذا إشعارٌ بأنَّ الشَّأنَ كلَّه للّهِ في امتثالِ أوامرِه، فحيثما وَجَّهَنا تَوَجَّهْنا".

وهذا الإخبار ضربٌ من الإعجازِ الغيبيّ الّذي تحدّى به القرآنُ الكريمُ المخاطَبين في عهدِ النّبوّة؛ حيثُ نطقَتِ الآيةُ بذلكَ الحدثِ قبل وُقوعِه، وقد وقعَ كما قال علّامُ الغيوبِ -جلَّ شأنُه- ولا ريبَ في كلماتِ اللّهِ تعالى[2].

سَبَبُ النّزول:

عن البراءِ بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: كان رسولُ اللّه ﷺ صلّى نَحْوَ بيت المَقْدِس ستّةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً، وكان رسولُ اللّه ﷺ، يحبُّ أن يُوجَّه إلى الكعبةِ، فأنزل اللّه: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾، فتوجّهَ نحو الكعبةِ، وقال السّفهاءُ من النّاس -وهم اليهودُ-: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غرب).
(2) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص: 22.

مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾، فصلّى مع النّبيّ ﷺ رجلٌ، ثمّ خرجَ بعدما صلّى، فمَرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاةِ العصرِ نحو بيتِ المقدسِ، فقال: هو يشهدُ أنّه صلّى مع رسول اللَّه ﷺ، وأنّه توجَّهَ نحو الكَعبةِ، فتحرّفَ القومُ حتّى توجّهُوا نحوَ الكَعبةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ الفَصلِ في قولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

جمالُ الإعجازِ الغيبيِّ القريبِ يتجلّى في سرعةِ وقوعِه وقوَّةِ وَقْعِه

الآيةُ مفصولةٌ[2] عمّا قبلها؛ حيثُ جاءت بدونِ عطفٍ؛ لأنّ غرضَها مختلفٌ عن غرضِ الآياتِ السّابقة؛ فهي استئنافٌ لبيانِ معانٍ جديدةٍ، وليست جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ[3]، وقدَّمتِ الآيةُ خبرًا غيبيًّا يقعُ قريبًا؛ وهو مقولةُ السُّفهاءِ في شأنِ القِبلةِ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، وهذه الآيةُ من الإعجازِ الغيبيِّ، الذي كَشَفَ غباءَ القومِ، إذْ لم يستطِعْ أولئك السُّفهاءُ أنْ يُمسِكوا ألسِنتَهم عن قَوْلِ السَّفاهةِ.

معرفةُ القادِمِ فيه توطينُ النَّفسِ وإعدادُ الجوابِ وإظهارُ المُعجزةِ

"فإن قلتَ: أيُّ فائدةٍ في الإخبارِ بقولهم قبلَ وقوعه؟ قلت: فائدتُهُ أنّ مفاجأةَ المكروه أشدُّ، والعلمُ به قبل وقوعِه أبعدُ من الاضطرابِ إذا وقع لما يتقدّمُهُ من توطينُ النّفسِ، وأنّ الجوابَ العتيدَ قبل الحاجةِ إليه أقطعُ للخصم وأردُّ لشغبِه، وقبلَ الرَّمي يُراشُ السَّهمُ"[4]؛ فالإخبارُ بخبرٍ قبل وقوعِه أدْعى لتوطينِ النّفس، فإنّ مُفاجأةَ المكروه على النّفسِ أشقّ وأشدُّ، وفي هذا الإخبار أيضًا إعدادٌ وتلقينٌ للنّبيّ ﷺ ما يردُّ به على أولئك السّفهاءِ، مع ما فيه

(1) رواه البخاري، حديث رقم: (7252)، وينظر: خالد المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن: 1/217.
(2) الفصل من موضوعات علم المعاني، وهو قسم من مبحث الفصل والوصل، وتعريفه: "الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه"، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/97.
(3) محمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/196.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/198.

من دلائلِ النّبوةِ؛ حيثُ فيه إخبارٌ عن غيب[1]، وقد أحسنَ الفخرُ الرّازي في تَعدادِ فوائد هذا الإخبار[2]:

أحدها: أنّه ﷺ إذا أَخبرَ عن ذلكَ قبل وقوعِهِ، كان هذا إخبارًا عن الغيبِ فيكونُ معجزًا.

وثانيها: أنّه تعالى إذا أخبَرَ عن ذلكَ أوّلًا ثمّ سَمِعَهُ منهم، فإنّه يكونُ تأذّيه من هذا الكلامِ أقلَّ ممّا إذا سَمِعَهُ منهم أوّلًا.

وثالثها: أنّ اللّه تعالى إذا أسمَعَه ذلك أوّلًا، ثمّ ذكر جوابَه معَه فحين يسمَعُه النّبيُّ ﷺ منهم يكونُ الجوابُ حاضرًا، فكان ذلكَ أولى ممّا إذا سَمِعَهُ ولا يكونُ الجوابُ حاضرًا.

براعةُ نَظمِ الإعجازِ الغَيْبيِّ في قولِه: ﴿سَيَقُولُ﴾:

تأكيدُ صدورِ المقالةِ مستقبلًا؛ ليَكُونَ ذَلِكَ مُعْجِزًا للأغبياءِ ومُحرِجًا للسُّفهاءِ

صُدِّرت الآية بحرفِ التّنفيسِ (السِّين)، وفائدةُ هذا الحَرْفِ الاستقبالُ، فهو يصرفُ زمنَ الفعلِ إلى المستقبلِ، وهذا يقتضي أنّ الحدَثَ ليس واقعًا بعدُ.

وقد استشكلَ بعضُ المفسّرين هذه الآيةَ متسائلين: كيف يُخبِرُ عن قولهم ذاك ولمَّا يقع تحوُّلُ القبلةِ بعدُ؟! فأوّلُوه بالماضي، قال الرّازيُّ: "هذا اللّفظُ وإنْ كانَ للمُستقبلِ ظاهرًا لكنّه قد يُستَعمَلُ في الماضي أيضًا"[3]، وهذا يقتَضي أنّ الآيةَ قد نزلت بعد آية تحوّلِ القبلةِ، ثم صَدَرَ منهم ذلك القولُ، فنزلت هذه الآيةُ مصدّرةً بالسّين، لكنْ على معنى الماضي ليدلّ على استمرارِهم فيه؛ والقولانِ لهما وجهٌ من القَبولِ، وكلاهما يدلُّ على الإعجازِ الغَيْبيِّ، فعلى قولِ أنَّهم لم ينطقوا بذلك بعد فهو إعجازٌ، وعلى قول أنَّهم نطقوا بتلك المقولةِ فإنَّ الإخبارَ بإعادةِ النُّطقِ بها إعجازٌ كذلك؛ ولا فرقَ بين الأمرين في كونِه إخبارًا عن حدَثٍ مستقبلٍ؛ لذا فالسّينُ باقيةٌ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 1/413.
(2) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 3/3.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.

على دِلالتِها المُستقبليّةِ وهذه دلالةُ الظَّاهرِ؛ لتفيدَ تأكيدَ صُدورِ مقالَتِهم تلك مستقبلًا، وليس بنادرٍ في القرآن أن يخبرَ عن أقوالهم المُستقبلَةِ، مثل قوله ﷻ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: 51].

"سَيَقُولُ، ظَاهِرٌ فِي الاستِقبَالِ، وَأَنَّهُ إِخبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ، أَنَّهُ يَصدُرُ مِنْهُمْ هَذَا القَولُ فِي المُستَقبَلِ، وَذَلِكَ قَبلَ أَنْ يُؤمَرُوا بِاستِقبَالِ الكَعبَةِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الآيَةُ مُتَقَدِّمَةً فِي النُّزُولِ عَلَى الآيَةِ المُتَضَمِّنَةِ الأَمْرَ بِاستِقبَالِ الكَعبَةِ، فَتَكُونُ مِنْ بَابِ الإِخبَارِ بِالشَّيْءِ قَبلَ وُقُوعِهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ مُعجِزًا؛ إِذ هُوَ إِخبَارٌ بِالغَيْبِ، وَلِتَتَوَطَّنَ النَّفسُ عَلَى مَا يَرِدُ مِنَ الأَعدَاءِ، وَتَستَعِدَّ لَهُ، فَيَكُونُ أَقَلَّ تَأثِيرًا مِنْهُ إِذَا فَاجَأَ، وَلَم يَتَقَدَّم بِهِ عِلمٌ، وَلِيَكُونَ الجَوَابُ مُستَعِدًّا لِمُنكِرِ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالمُستقبَلِ في: ﴿سَيَقُولُ﴾:

مَنهجُ الطّعنِ في الحقِّ مُستمرٌّ بقطعِ النَّظرِ عن صُورتِه

وعُبِّر بالفعلِ المضارِعِ المَصروفِ للاستقبال دونَ الاسم، فلم يقل: (إنّهم لقائلون) وغيره من التّراكيب المُمكنةِ في هذا الموطنِ؛ للدّلالةِ على أنّ هذا الفعلَ سوفَ يقعُ ابتداءً ويستمرُّ ويتجدّدُ، وأنّ الطّعنَ في تحويلِ القبلةِ سيَبقَى موضوعًا مطروقًا على ألسنةِ السُّفهاءِ وأشباهِهم من أهلِ الشُّبَه والفِتَنِ، قال ابن عطيَّة: "وجعلُ المستقبلِ موضعَ الماضي في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ دلالةٌ على استدامةِ ذلك، وأنّهم يستمرّون على ذلك القولِ"[2].

فائِدةُ اختيار لفظِ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾:

كلُّ من يَستهزئُ بالقرآنِ فهو داخِلٌ في السَّفاهةِ لا يُغادِرُها إلّا بتوبةٍ

اختلفَ المُفسِّرون في بيانِ المرادِ بالسّفهاءِ على ثلاثةِ أقوالٍ: المُشركون، والمُنافقون، واليَهود[3]، والصَّحيحُ أنّهم جميعًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/218.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.

مشمولُون بذلك، ولا فائدةَ في بيانِ الفئةِ الّتي قالت ذلك؛ فالقرآنُ وصفَهُم بالسّفاهَةِ، وهي شاملةٌ لكلِّ من استهزأَ بهذا التّحوُّل بقطعِ النّظرِ عن فِئتِهِ وعقيدتِهِ، فإنَّه "يدخلُ فيه الكلُّ؛ لأنّ لفظَ السّفهاءِ لفظُ عُمومٍ دَخَلَ فيه الألفُ واللّامُ، وقد بيّنّا صلاحيَّته لكلِّ الكفّارِ بحَسبِ الدّليل العقليّ، والنّصُّ - أيضًا - يدلُّ عليه، وهو قولُه: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130]"[1].

فائِدةُ تعريفِ: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾:

السُّفهاءُ صِنفٌ معروفٌ، عُنوانُهم الاعتداءُ على الشَّرعِ

جاءَ لفظُ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ معرفةً؛ للإيماءِ بأنّ هؤلاء القائلين مَعروفٌ دأبُهم معهودٌ شأنُهم، وأنّهم قد شُهروا به، حتّى باتت صفةُ السّفه كأنّها خاصّةٌ بهم، يتعرّفُون بها لا تفارِقُهم؛ فهم صِنْفٌ مُعيَّنٌ من النّاس، وفئةٌ معروفةٌ في المجتمعِ، وهم لا يقتصِرون على ملَّةٍ أو ديانةٍ أو جنسٍ بشريٍّ، إذ لفظُ السُّفهاء "يدخلُ فيه الكلُّ؛ لأنَّ لفظَ السّفهاءِ لفظ عُمومٍ، ودَخَلَ فيه الألفُ واللّامُ"[2]، والسُّفهاءُ موجودون في كلِّ زمنٍ، وفي كلِّ مكان، يظهرون في أوقاتٍ، وينغمسون في أخرى، عنوانُهم الاعتداءُ على الشَّرعِ، والقَوْلُ في القرآنِ جهلًا وحمقًا، فالسَّفيهُ والرُّوَيْبِضَةُ سواء.

فائدةُ قيدِ العمومِ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

الحذَرُ من كلِّ سفيهٍ مطلوبٌ، والخِطابُ يَصدُقُ على مَنْ وافقَهُم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

سبَقَ بيانُ أنَّ المقصودَ بالسُّفهاءِ كلُّ من أتى اعتداءً بقولِه على الشَّرعِ، من المنافقين واليهودِ والمشركين، ويدخلُ كذلك غيرُهم ممَّن سلك مسلَكَهم؛ لذلك أتى بقيدِ: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يقل: من الّذين كفَرُوا أو من أهلِ الكِتابِ؛ ليَشْمَلَ الكلامُ كلَّ من ينطبق عليه الكلامُ

(1) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 3/4.

من النَّاسِ جميعًا، كالمنافقين مثلًا، وكلّ من وافقهم[1]، وفائدةُ ذلك أن يحذَرَ المؤمِن من كلِّ من يأتي بمثلِ كلام هؤلاء، سواءٌ في أمرِ القبلةِ أو غيرِها.

وعليه فإنّ إظهارَ وصفِهم بأنّهم من النّاس يفيدُ المبالغةَ بصفةِ السَّفَهِ، وبيانُهُ: إنّ الإنسانَ مهما اتّصفَ بالسّفاهة والعَتَهِ والطّيش، فإنّه لا يخرجُ عن كونِهِ من النّاس، فكان يمكنُ أن يقالَ في غير القرآنِ: (سيقولُ السّفهاء ما ولّاهُم عن قبلتِهم)، ولكنّه وصفَهم بما هو معلومٌ؛ للتّنبيه على بلوغِهم الحدَّ الأقصى من السّفاهةِ بحيثُ لا يوجدُ في النّاس سفهاءُ غيرُهم، فإذا قُسِّمَ النّاسُ أصنافًا، كان هؤلاءِ صنفَ السّفهاءِ، فيفهَمُ أنّه لا سَفيهَ غيرُهم، وهذا على وجهِ المبالغةِ، والمعنَى: أنّ كلَّ مَنْ صَدَرَ منه هذا القولُ هو سَفيهٌ، سواء كان القائلَ اليهودُ، أو المشركون من أهل مكّة، أو المنافقون[2].

نُكتةُ تَخصيصِ السّفهاءِ بكونِهم ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

التَّهكُّمُ بالسُّفهاء؛ بتنزيهِ الجماداتِ والحيواناتِ عنِ الوقوعِ في السَّفاهةِ

سبقَ في النُّكتةِ السَّابقةِ أنَّ قيدَ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أفادَ العُمومَ ليشملَ كلَّ من صدرَ عنه مثلُ هذا القولِ، وهنا نجد أنَّ ابن عطيَّة ذهب إلى مَلْحظٍ لُغويٍّ تَهكُميٍّ وهو: أنَّ هذا القيدَ أفادَ تخصيصًا، فقال: وخَصَّ بقوله ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنّ السَّفَهَ يكونُ في جماداتٍ وحيواناتٍ"[3]، فأصلُ السَّفه: "الْخِفَّةُ؛ يُوصَفُ بِهِ الْجَمَادُ، قَالُوا: ثَوْبٌ سَفِيهٌ؛ أَيْ خَفِيفُ النَّسجِ وَالهَلهَلَةِ، وَرُمحٌ سَفِيهٌ: أَيْ خَفِيفٌ سَرِيعُ النُّفُوذِ، وَيُوصَفُ بِهِ الحَيَوَانَاتُ غَيرُ النَّاسِ، فَلَو اقتَصَرَ؛ لاحتَمَلَ النَّاسَ وَغَيرَهُمْ؛ لأَنَّ القَوْلَ يُنسَبُ إِلَى النَّاسِ حَقِيقَةً، وإلى غيرهم مجازًا، فَارْتَفَعَ المَجَازُ بِقَوْلِهِ: مِنَ النَّاسِ"[4]، ونكتتُه: تنزيهُ الجماداتِ والحيواناتِ أن يقعوا فيما وقعَ فيه السُّفهاءُ من النَّاس، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]، ويردُ عليه أنّ إسنادَ القولِ إليهم ﴿سَيَقُولُ﴾ كافٍ في

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/7.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/218.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9-10.

بيان أنّهم من النّاس، "وردَّهُ ابنُ عرفةَ بأنّ القولَ المسندَ إليه في الآيةِ يُخصِّصُه بالحيوانِ"[1]، واعتراضُ ابنِ عرفةَ صحيحٌ، لكن بحملِه على التَّهكُّم يجعلُ له موضعًا من القَبولِ.

غرضُ الاستِفهامِ في قوله: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾:

بـيـانُ منـهـج الاسـتـهـزاءِ بـالـدِّيـنِ، وأنَّـه قـائِـمٌ عـلى تـكـثيرِ الأسـئلةِ والاعتراضِ

غرضُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ الاستهزاءُ والتّعجّبُ[2]، أو الاستهزاءُ فَقَطْ؛ أي: أنّهم سألوا ساخِرين مُتهكّمِين مُستهزئين[3]؛ للتّعريضِ بالمسلمين، بالتّخطئةِ واضطرابِ العقل[4]؛ أو الإنكارُ، "أي: أيُّ شيءٍ، وأيُّ سببٍ اقتضَى انصرافَهم عن قبلتِهم التي كانُوا عليها، الّتي هي قبلةُ الأنبياءِ والمُرسلين؛ أي: لا سببَ يقتضِي ذلك، وإنّما هو من تَشَهِّيهم وتصرّفِهم برأيهم"[5].

فَالسُّفهاءُ في سؤالِهم على تنوُّعِ أغراضِه لا يُريدون جوابًا، بل مَطلبُهم الفتنةُ، وغرضُهم إثارةُ الاضطرابِ والتّشويش، وإظهارُ الخَطأ في أحكامِ الإسلامِ، والاستهزاءُ؛ أي: أنّهم أرادوا نِسبةَ المسلمين إلى السَّفهِ، فكانت النّتيجةُ أن باؤُوا بهذا الوصفِ، ووصفُ المُؤمنين بالسَّفاهة بسببِ انقيادِهم لشرعِ اللّه تعالى سلوكٌ ثابتٌ للسُّفهاءِ، وكثرةُ الأسئلةِ المراد بها الاستهزاءُ بالدِّينِ؛ تدلُّ على وقوعِ السَّائلين في مستنقعِ السَّفاهةِ.

إيثارُ الاستفهامِ بـ ﴿مَا﴾ دون (مَنْ) في ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾:

العقليّةُ الماديّةُ والاستفهامُ بـ(ما)

آثر النَّظمُ أن يَحكيَ مَقولتَهم بالاستفهامِ بـ ﴿مَا﴾ دون "مَنْ"؛ ليُبيّن أنّ هذا التّساؤلَ يدلُّ على طريقة تفكير مادّيّ يرتبطُ بالأشياءِ والإراداتِ، ويُفسّرُ كلَّ شيءٍ من خلالِ هذه الفلسفَةِ المادّيّةِ؛ فهؤلاءِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/449.
(2) الرّازي، التفسير الكبير: 4/80.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/436.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/8.
(5) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 3/10، ومحمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/196.

السّفهاءُ لا يعرفُون المُسبِّبَ الحقيقيَّ للأسباب، ولا يُقيمون وزنًا للرّوح وعالمِ الغَيبِ؛ من هنا أوثِرَ استعمالُ "ما" دون غيرها إيماءً إلى ما في عقولِهم وأذهانِهم من نظرةٍ مادّيّةٍ؛ لذلك جاء الجوابُ في الآية: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾، برَجْعِ الأمرِ والملكِ للّه، أي: إلى المُسبِّبِ الحقيقيّ وخالقِ الأسباب.

فائدةُ التّعبيرِ بضَميرِ الغَيبَةِ ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾:

جاءتْ حكايةُ قولِ السُّفهاءِ بالغَيْبةِ لا بالخطابِ؛ فلم يقل: ما ولّاكم عن قِبلتِكم، "إشارةً إلى أنّهم قالوا ذلكَ فيما بينَهُم ولم يُباشروا به المُؤمنين بوجهٍ، وهذا مرجّحٌ لأن تكونَ المقالةُ من المنافِقين"[1]، والصَّحيح أن تكونَ صادرةً عنهم وعن غيرِهم؛ إلَّا أنَّها عنهم أكثر، وإيثارُ الغَيْبةِ على الخِطابِ باعتبارِ الكثرةِ والقلَّةِ؛ فإنَّ السُّفهاءَ يُكثرون من اللَّغطِ وفحشِ القول فيما بَيْنهم وبين عموم النَّاس، بقصدِ الفتنةِ، بعيدًا عن حضورِ المؤمنين؛ فهم طالبو فتنةٍ لا طالبو فطنة، وهذا لا يمنعُ أن يقولوها بحضورِ المؤمنين، بل على الملإِ من النَّاسِ إذا تمكَّنوا وتجبَّروا.

الغالبُ على السُّفهاءِ إثارةُ الفتنةِ بعيدًا عن حضورِ المؤمنين

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ في قولِهِ ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾:

مَرجِع الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ يعودُ إلى النّبيِّ ﷺ وأصحابِه[2]، وكان الظّاهرُ أن يقولوا: (ما ولّى المسلمين عن قبلتهم)؛ إذ لم يَجْرِ لمَرْجِع الضّمير قبل ذلك ذِكْرٌ، والذي دلَّ على مرجع الضّمير في هذه الآية هو المقامُ[3]، إذْ هُم أصحابُ القبلةِ، وهم الذين ولَّوا وجوههم عن بيتِ المقدسِ إلى البيتِ الحرامِ.

المقامُ يُعيِّنُ مَرجِعَ الضَّميرِ كالتَّعيينِ اللَّفظيِّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/450.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/368، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/10.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/8.

للضَّمائرِ أثرٌ في بيانِ المعاني، ما لا تُؤدِّيه الألفاظُ الظَّاهِرةُ

لتعيينِ مرجعِ الضَّميرِ تعليلٌ لفظيٌّ أو مقاميٌّ، وتعليلٌ بلاغيٌّ، فسبق بيانُ الأوَّلِ، أمَّا البلاغيُّ الّذي من أجلِهِ آثرَ القرآنُ أن يقولَ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ دون: (ما ولّى المسلمين عن قبلتهم)، أنّ الغرضَ من ذلك بيانُ شِدّةِ انشغالِ السّفهاءِ بالمسلمين؛ فالمسلمُون كانوا يمثّلون هَمًّا لهؤلاءِ، وشُغلًا أقضّ مضاجِعَهم، فهم في حديثٍ مستمرٍّ عنهم، لا ينفكّون عن ذلك، حاضرون في أذهانِهم في كلّ وقتٍ، يتطرَّقون لذكرهم كلمّا عَنَّ لهم ذلك وأمكنَ؛ فشدّةُ حضورِ المُسلمين في أذهانِ أولئك أغنتْ عن ذكرِهم لفظًا ظاهرًا قبل الإضمارِ، وللضَّمائرِ أثرٌ في بيانِ المعاني، ما لا تُؤدِّيه الألفاظُ الظَّاهِرةُ.

دلالةُ إضافةِ القبلةِ إلى الضَّمير ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾:

اختِصاصُ قبلةِ بيتِ المقدس بالمسلمين دون غَيْرِهم

لسَائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إضافةِ القبلةِ إلى المسلمين مع تحوُّلِهم عنها؟ والجواب: "لِأَنَّهُمْ كَانُوا اسْتَقْبَلُوهَا زَمَنًا طَوِيلًا، فَصَحَّتِ الإِضَافَةُ"[1]، ويجب تقديرُ مضافٍ محذوفٍ "في قولِه: ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على توجُّهِهَا أو اعتقادِها"[2]، فهو يدُلُّ على مزيدِ اختصاصِها بهم؛ إذ لم يستقبلْها غيرُهم من الأمم؛ لأنّ المشركين لم يكونُوا من المُصلّين أصلًا، وأهلَ الكتابِ لم يكونوا يستقبلُون في صلاتِهم[3]، وفيه إشعارٌ بأنَّ القبلةَ الأُولى هي للمسلمين، وإن تحوَّلوا عن التَّوجُّهِ إليها؛ فهي قِبلتُهم، فتركُ التَّوجُّه إليها لا يسلبُ عنها وصفَ اختصاصِ المسلمين بها.

دلالةُ حَرْفِ الاسْتِعْلَاءِ في قولِه: ﴿ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَآ﴾:

دلَّ حرفُ الاستعلاءِ على التّمكُّن لِما فيه من معنَى الفوقيّةِ والاستعلاءِ؛ فقولُهُ: ﴿ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَآ﴾ يدلُّ على أنّهم كانوا مُلازمين لها، فـ "على" هنا للتمكّن المجازيّ، "بالاستعارةِ؛ حيثُ شبَّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/10.
(2) السمين، الدر المصون: 2/150.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/9.

مواظبتَهُم على المحافظةِ عليها باستعلاءٍ منْ استعلَى على الشَّيءِ"[1]، وهو شدّةُ الملازمةِ، مثل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5]، وفيه زيادةُ توجيهٍ للإنكارِ والاستغرابِ من قائلي هذه المقولةِ؛ أي: كيفَ عدَلوا عنها بعد أن لازَمُوها؟ ولم يكن استقبالُهم إيّاها مجرّدَ صُدفةٍ، فإنّهم استقبلوا الكعبةَ ثلاثَ عشرةَ سنةً قبلَ الهجرة[2]، وهذا التّعبيرُ سيتكرّرُ في الآية اللّاحقة: ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾.

دلَّ الاِسْتِعْلَاءُ عَلَى تَمَكُّنِ الاسْتِقْبَالِ، وأمرُ الله في التَّحوُّلِ أعلى وأمكنُ

براعةُ الاستئنافِ، في تعيينِ الجوابِ في قولِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾:

فُصِلَ بين جملةِ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ وجملة: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ لأنّ الجملةَ الثّانيةَ جوابٌ عن سؤال تُثيرُهُ الجملةُ الأولى، فكأنّ سائلًا قد سألَ: وماذا كانَ الجوابُ؟ وهنا تأتي الجملةُ الثّانية جوابًا عن هذا السّؤالِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾[3].

فائدةُ تعليمِ الجوابِ للنَّبيِّ ﷺ:

القائِدُ الشَّرعيُّ هو المُكلَّفُ في الرَّدِّ على الطَّاعنين؛ عندما تخُصُّ القضيّةُ الأمّةَ

فعْلُ الأمر هنا تلقينٌ من اللهِ ﷻ لنبيّه ﷺ ليَرُدَّ عليهم، وهو يدلُّ على الإرشادِ والتّعليم، وأما الرّدودُ على سؤالهم وطُعونِهم فهي مفتوحةٌ غيرُ محدودةٍ، ولكلّ طَعْنٍ أجوبتُهُ، وعلى علماءِ المسلمين أن يجتهِدُوا في ذلك.

نلحظُ أنَّ اللّه تبارك وتعالى لقَّنَ نبيَّهُ ﷺ ليَرُدَّ عليهم، ولم يجعلِ الجوابَ مباشرًا؟ ومن حكمة ذلك -واللّه أعلمُ بأسرار التّنزيل وحِكمه- أنّ الاعتراضَ المتهكّمَ به كان على النّبيِّ ﷺ وأصحابِهِ؛ حيثُ رَمَوهُ بالتّحيّر[4]، فلمَّا وُجِّهَ السّؤالُ والاستهزاءُ إلى النّبيّ ﷺ والمسلمين، كان إجراءُ الجوابِ على لسانِه هو الأولى؛ لأنَّه صاحبُ الشّريعة ومُبلّغُها، وهو المُكلَّفُ أن يَرُدَّ عليهم؛ فالقضيّةُ تعني الأُمّةَ كلَّها.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/23.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/10، والسمين، الدر المصون: 2/150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/9.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/171.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/437.

فائدةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

أصلُ الكلام: المَشرقُ والمَغربُ لله، ولكنّه قدّمَ الخبرَ ﴿لِلَّهِ﴾، وأخّر المبتدأ ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾؛ لإفادة التّخصيصِ والحَصرِ، فإنّ الجهاتِ كلّها لله ﷻ وليست لأحدٍ سِواه.

سرُّ العُدولِ عن ذكر القِبلةِ إلى ذكر المشرقِ والمغربِ في قولِه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

إقامةُ الدّليل أقوى من ذكرِ الدّعوى، فمَن ملكَ أمَر

عدلَ الجوابُ عن إثباتِ أنَّ تحديدَ القبلةِ لله، إلى بيانِ ملك الله للسَّماواتِ والأرض؛ لبيانِ أنَّ "له أن يأمرَ بالتّوجّه إلى أي جهةٍ شاءَ"[1]، فالتَّوجُّه في الصَّلاة لا يكون لذات الجهات، وإنّما يكون إليها بإيجاب الله تعالى[2]، "وَالمَعْنَى: أَنَّ الجِهَاتِ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، يُكَلِّفُ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَستَقبِلَ مِنهَا، وَأَنْ تُجْعَلَ قِبْلَةً"[3]، فهو "لا يختَصُّ به مكانٌ دون مكانٍ بخاصيّةٍ ذاتيّة تمنعُ إقامةَ غيره مقامَه، وإنّما العبرةُ بارتسام أمرِه لا بخصوص المكان"[4]، فلا اعتراضَ على أمرِه؛ "فيأمر بالتّوجّه إلى حيثُ شاء، فتارةً الكعبة وطورًا إلى البيتِ المقدس، لا اعتراضَ عليه لأنّه المالكُ وحده"[5].

توجيهُ المخصُوصِ بالذِّكرِ في قوله ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

ذِكرُ المشرقِ والمغربِ يشمل بقيّةَ الجهات، بخلافِ العكسِ

اقتصرتِ الآيةُ على ذكرِ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، ذلك لأنَّ الشمس لها جهة شروق وغروب بها تأتي على الأرض كلِّها على مدارِ العام، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج: 40]، فالمقصودُ بالمشرقِ والمغربِ كلُّ بقعةٍ تشرقُ فيها الشَّمسُ وكلُّ بقعةٍ تغربُ فيها، هذا توجيهُ.

(1) الواحدي، البسيط: 3/368.
(2) الكيا الهراسي، أحكام القرآن: 1/20.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/11.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/110.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 1/136-137.

وتوجيهٌ آخر، أنَّ جهةَ الشَّرقِ والغربِ أوضحُ في ذهنِ المخاطَبِ، فلمَّا جعلهما له وحده، ثبتَ لُزومًا له الشَّمالُ والجنوبُ، فهما الأهمُّ في استعمالِ النّاس؛ فَبِهما يُعيِّنُ النّاس الشّمالَ والجنوبَ، وهما الأسهلُ في التَّعيينِ، فهما يُعرَفانِ بشروقِ الشّمس، أو النّجوم، وغروبِهما، ويَعُمّان جميعَ نقاطِ الأرض، أمّا الشّمالُ والجنوبُ فجهاتٌ لا تتحدّدان بذاتهما، فالمرادُ جميعُ الجهاتِ؛ من بابِ الكنايةِ عن الأرضِ كلِّها[1]، أي: إنّ اللّه تعالى مالكُ الأرضِ شرقيِّها وغربيِّها وشماليِّها وجنوبيِّها، واقتُصِرَ على ذكر الشّرق والغرب؛ لأنّ مَنْ مَلَكَهما ملكَ الأرضَ كلّها، فلَا فرق بين قريب وبعيد، وشَرْقٍ وغَرْبٍ، وإذا كان هو المالكَ للأرض، فهو يتخيَّرُ لموضع قبلتِهِ ما يشاءُ من أرضه وهو الحكيمُ العليم[2].

فنُّ الطّباقِ في قوله: ﴿ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾:

جمعتِ الآيةُ بين ضدّين متتابعين، وهما المشرق والمغرب، فهذا طباق[3]، وهو من محسّناتِ الكلام الجماليّةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصول ﴿مَن﴾:

(من) لفظٌ عامٌّ غيرُ مُحدَّد؛ يشملُ الجنسين من غير حاجةٍ للتّغليبِ

استعملَ الاسمَ الموصولَ ﴿مَن﴾ دون (الّذي، أو الّذين)؛ لأنّ (الّذي) وفروعه يطلقُ على محدّد معيّن بذاته، ولا عمومَ فيه؛ فلو قال: (يهدي الّذين يشاءُ) لكان المعنى أنّهم أشخاصٌ محدّدون مهما كثُروا، وأمّا قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فهو عامٌّ غيرُ مُحدَّد؛ وهو أيضًا يشملُ الجنسين المذكّر والمؤنّث من غير حاجةٍ للتّغليب، فلو قال: (الّذين) لكان شمولُ الإناث بالتّغليبِ لا باللّفظِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ بتشبيهِ الحقِّ بالطّريقِ الواضحِ الموصِلِ إلى الجنَّةِ

المركّبُ الوصفيُّ ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ في قوله ﷻ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ استعارة تصريحيّة[4]؛ لأنّه صرّح بلفظِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/12.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/437.
(3) الطّباق: ويسمّى المطابقة، والتّضاد، والتّطبيق، والتّكافؤ، والتّطابق، وهو أن يجمع المتكلم في كلامه بين لفظين، يتنافى وجود معناهما معاً في شيء واحد، في وقت واحد، بحيث يجمع المتكلم في الكلام بين معنيين متقابلين، ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 303.
(4) الاستعارة التّصريحية، أو المصرّحة: هي ما صُرّح فيها بلفظ المشبه به، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 267.

المشبّهِ به ﴿صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾؛ حيثُ شبّه الحقَّ، أو الإسلامَ بالطّريقِ الواضحِ المستقيم، فحذفَ المشبَّهَ، وصرّحَ بالمشبَّهِ به، والاستعارةُ مبنيّةٌ على تناسي التّشبيهِ، فيكونُ المشبَّهُ كأنّه هو المشبّهُ به، فتكونُ فيها مبالغةٌ، وأثرُ الاستعارةِ في النّفوس لا يخفى، ومعنى إلى صراطٍ مستقيم: "إلى دينٍ مستقيم، يريدُ: أنّي قد رضيتُ قبلةَ أولئك، ورضيتُ هذه القبلةَ لمحمّد ﷺ، "ودينُ اللّه" يسمّى: صراطًا مستقيمًا؛ لأنّه يؤدّي إلى الجنّة؛ كما يؤدّي الطّريقُ المستقيمُ إلى البُغيةِ"[1].

❁ الفروقُ المعجميّة لألفاظ الآية:

الصِّرَاط والطَّرِيق والسّبيل:

الصِّرَاطُ: الطَّريقُ السّهلُ، قَالَ الشّاعر[2]:

حشونا أَرضهم بِالخَيْلِ حَتَّى *** تركناهم أذلّ من الصِّرَاط

فلذا يوصفُ به الطّريقُ الموصلُ للّه تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]؛ فلسهولتِهِ يعبّرُ به عن الدّينِ.

الصِّرَاطُ لسهولتِهِ يعبّرُ به عن الدّينِ

والسّبيلُ: الطّريقُ الّذي فيه سهولةٌ، وجمعه سُبُلٌ، ويستعملُ السّبيلُ لكلّ ما يتوصّلُ به إلى شيء خيرًا كان أو شرّا، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النّحل: 125][3]؛ ولأنّ السّبيلَ يستعملُ لكلّ ما يتوصّلُ به، أطلق على العملِ الّذي يكونُ للّه تعالى، كالقتالِ في سبيله؛ والغالبُ استعمالُهُ في الخَيرِ.

يستعملُ (السّبيلُ) لكلّ ما يتوصّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرّا، والغالبُ استعمالُهُ في الخَيرِ

والطّريق: لا يقتضي السّهولة، ولا يكاد يرادُ به الخَيرُ إلّا مقترنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تخلّصُهُ لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][4]، والسّبيلُ أوسعُ من الطّريق؛ لأنّ الطّريق لَا يَقْتَضِي السّهولة[5].

(الطّريقُ) لا يقتضي السّهولةَ، ولا يكاد يرادُ به الخَيرُ إلّا مقترنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تخلّصُهُ لذلك

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/369.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة: ص: 298.
(3) الراغب، المفردات: (سبل).
(4) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 313.
(5) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 298.

مُستَقيم وقِيَم:

الوصفُ بـ(قِيَمًا) فيه مُبَالَغَةٌ؛ لأنّه مصدرٌ، و(مُستَقيم) دالٌّ على الاستقامةِ بدون مبالغةٍ

جاء في الذّكرِ الحكيمِ وَصْفُ الصّراطِ بالاستقامةِ، والدّين بالقِيَم، فما الفرقُ بين المفردتين؟ الجواب: اللّفظان من مادّة (قام)، والأصلُ يدلُّ على انْتِصَابٍ، قام: إذا استوى منتصبًا، القَوَامُ الطُّولُ الحَسَنُ[1]، والقِيَم: الاسْتِقَامَة، وقَول الله ﷻ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]: القيِّم، هُوَ المُسْتَقيم[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: من (الاستقامةِ) وهي في اللّغة: الاستواءُ، يقال: قام إذا استوى مُنتصبًا، وأقامه: إذا سوّاه، وقاومه إذا ساواه في القوّة، وقِيمة الشّيء ما يساويه من ثمنِهِ، ومعنى الاستقامةِ استمرارُ الشّيء في جهة واحدة[3]، في المعنى العامّ: اللّفظان (مُستَقيم) و(قِيَم) ينحدران من أصلٍ واحدٍ، والفرقُ يظهرُ من بنية كل لفظ؛ فالقِيَم: "مَصْدَرٌ بِمَعْنَى القِيَامِ كالصّغر، وَالكِبَرِ، وَالحِوَلِ، وَالشِّبَعِ، وَالتَّأْوِيلُ: دِينًا ذَا قِيَمٍ، وَوَصَفَ الدِّينَ بِهَذَا الوَصْفِ عَلَى سَبِيلِ المُبَالَغَةِ"[4]؛ لأنّ الوصفَ بالمصدر يفيدُ المبالغةَ؛ فكأنّه هو الاستقامةُ بعينها؛ مبالغةً في وصفه بالاستقامة لما فيه من العَدلِ والخير وحفظِ الحقوق، فالوصفُ به أبلغُ من الوصفِ بـ (مُستَقيم) الدّالّ على الاستقامةِ بلا مبالغة.

والسّياقُ يظهرُ ذلك بجلاء؛ فجاء الوصفُ بالمصدر مع لفظ الدّين: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ الّذي جاء مع ألفاظ: صِراط، وملّة، وحَنيف، ونفي الشّرك: ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: 161]؛ لأنّه في مقام بيان مزيّةِ هذا الدّين واستقامتِهِ والاهتمامِ به، وقد استُعْمِلَ وصفُ الدّين بالمبالغةِ من خلال استعمال المصدر للوصف في معرض الإخبار عن كونه قد هُديَ إلى هذا الدّين: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]، أمّا في سورةِ الفاتحةِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: 6] فكان طلبًا للهدايةِ والثّباتِ عليها فجاء وصفُ الصّراط بأنّه مُستقيمٌ بدون مبالغةٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ والأزهري، تهذيب اللغة: (قام).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قام).
(3) الواحدي، البسيط: 1/528.
(4) الرّازي، التفسير الكبير: 14/190-191.

التّولية والصَّرْف:

أصل مادّة (ولي) يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، الوَلَاءُ والتَّوَالي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعار ذلك للقرب من حيث المكانُ، وإذا عُدّي الفعلُ (ولي) بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنَى الإعراضِ وتركِ القرب، ومن معانيه أيضًا لزومُ الشّيء شيئًا آخرَ تبعًا له، ومن هنا دلَّت على الاتّجاه إلى وِجْهٍ، ولَّى وجهَه شطْر كذا: وَجَّهَهُ إليه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: 144]، فهذه بمعنى الإقبالِ والاتّجاه إلى الشّيء، وإذا عُدّي بـ (عن) فهي بمعنى الانصراف[1]، فهو انصرافٌ عن الجهةِ.

الصّرفُ تحوّلٌ عامّ، و(التولّي عن القبلةِ) انصرافٌ عن وجهةٍ خاصّةٍ

وأصل مادّة (صرف) يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، وهو: ردُّ الشّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، يقال: صَرَفْتُهُ فَانْصَرَفَ، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 152]، مِنْ ذَلِكَ، صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وَانْصَرَفُوا، إِذَا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعُوا، وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: 146]، أي سأنحّي وأَعْدلُ بهم عنها، يقال: صرفه عن كذا: إذا عَدَلَ به عنه ونحّاه[2]، فالتّوليةُ تدلُّ على الاتّجاه والتَّوجُّه، وعند تعديةِ الفعل (ولّى) بـ (عن) فإنّه يدلُّ على الصّرفِ بخصوصيّة، وخصوصيّتُهُ في الآية الدّلالةُ على الانصرافِ عن اتّجاه معيّن: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ بمعنى ما صرفَهُم عن هذا الاتّجاه وحوّلهم عنه، والصّرف تحوُّلٌ عامّ، بمعنى الرّدّ والإرجاع؛ جاء في سياقِ القتال، فصرفَهُم بمعنى ردّهُم وحوّلهُم، وهو ردٌّ عامٌّ لا يتعلّق بالتّوجه كما في ﴿وَلَّىٰهُمْ عَن﴾، فالصّرف تحوّل عامّ، و(التولّي عن القبلةِ) هو انصرافٌ عن وجهةٍ خاصّةٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ السّمين، عمدة الحفّاظ: (صرف).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»